إعلان الحزب الاشتراكى

كانت الظروف الاجتماعية تنضج سريعا، وتلاحقت معها الصيحات الشجاعة للعمال والفلاحين الذين واجهوا الاستعمار بالسلاح فإذا بالقيادة الوفدية ترتعد، وتصرخ وتدين هؤلاء المتمردين.

وهكذا كان لا بد من قيادة جديدة.. تمثل هذه القوى التى تحركت فى عنف محطمة الإطار الذى رسمته القيادة الوفدية.

لكن كيف بدأ العمل؟

كانت هناك سلسلة من المحاولات..

وقد رأينا فى فصل سابق كيف حاول البعض (منصور فهمى وعزيز ميرهم) تأسيس حزب اشتراكى لكنه تحول تحت ضغط العناصر الليبرالية اليمينية إلى مجرد حزب ديمقراطى.

ولقد حدد الحزب الديمقراطى مكانه باعتباره وسطا بين اليمين واليسار. هكذا قال عزيز ميرهم سكرتير الحزب.. «ولما كانت العناصر المتأخرة (الرجعية) شديدة المراس فى البلاد المصرية كان من المصلحة أن يقوم فيها حزب اشتراكى قوى يلزم حزبنا الديمقراطى

بالتزام الوسط كما هو شأن الأحزاب الديمقراطية غير الاشتراكية فى جميع البلاد المتقدمة»[1] وكانت هناك المحاولات التى قام بها روزنتال.. الذى يروى فى شهادته الأسلوب الذى اتبعه لتأسيس حزب اشتراكى مصرى..

«كانت النقابات مسيرة لأغراض سياسية مختلفة تتبع الأحزاب الناهضة بالقضية الوطنية فى البلاد كالوفد والحزب الوطنى وغيرهما.. وكانت من رأيى أن ننشىء للطبقة العاملة مراكز للدفاع الاقتصادى والتربية الفكرية ولهذه الغاية نشرت فى غضون عام ١٩٢٠ نداء إلى النقابات العاملة لدعوتها إلى تأسيس اتحاد يضم شملها جميعا فتلقت هذا النداء بالقبول والإجماع وأرسلت إلى الإسكندرية مندوبين من قبلها يمثلون ٢٥ ألفا من العمال للاشتراك فى البحث فى المشروع، غير أن رؤساء النقابات المتشبعين بالفكرة السياسية شعروا آنذاك بأن إنشاء النقابات الحقيقية بطريقة تراعى فيها حالة العمال يؤدى إلى ضياع كل ما لهم من السلطة عليها ويحول دون الوصول إلى أغراضهم السياسية فسعوا سعيا جديدا لحمل نقاباتهم إلى عدم الاشتراك بالاتحاد وظلوا يماطلون فى التدابير الأولية سنة كاملة وفى بدء ١٩٢١ تمكنا من تأسيس اتحاد النقابات بعدد محدود لا يتجاوز ثلاثة آلاف من العمال ولما كنا نرى أن النقابات لا تستطيع أن تتدخل تدخلا فعليا فى الأمور السياسية لكونها مؤلفة من عمال مختلفين وذوى نزعات سياسية متضاربة، فكرنا فى تأسيس حزب سياسى يكون بمثابة لسان حال نقابات العمال ويكون فى استطاعته أن يدافع عن مصالحهم فى المجلس النيابى وغيره ويسعى لحمل الحكومة على إصدار قانون اجتماعى لحماية العمال المتروكين تحت رحمة الرأسمالية بظلمها، وعملا بهذه الفكرة أنشأنا الحزب الاشتراكى».

ومن هذه الكلمات نستخلص ما يلى:

- أن النفوذ اليسارى وسط الحركة النقابية كان إلى حد ما قويا.
- أن النقابيين من حزب الوفد والحزب الوطنى قد عارضوا بشدة هذا النفوذ اليسارى.
- أن الحزب الاشتراكى الذى استهدف روزنتال تأسيسه قد نبع أساسا من خلال معركة عمالية تستهدف توحيد العمال.

والحقيقة أن النضال النقابى كان سبيلا قاد الكثيرين من المناضلين العماليين إلى صفوف الحزب الاشتراكى.. وفى الكلمات التالية يحاول عبد الرحمن فضل - وهو واحد

من طلائع الاشتراكيين فى مصر- أن يروى تجربة وقصة انضمامه مع زملائه إلى الحزب الاشتراكى..

لقد زرعت فينا ثورة ١٩١٩ روح العمل الجماعى، وكنا قد تأثرنا بروح الحزب الوطنى فى تأسيس النقابات وفى تفتيش «حلق الجمل» بالبحيرة وهو تابع لشركة إنجليزية لاستصلاح الأراضى أسسنا نقابة عمالية كجزء من موجة النقابات التى انتشرت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ روح العمل الجماعى، وكنا قد تأثرنا بروح الحزب الوطنى فى تأسيس النقابات وفى تفتيش «حلق الجمل» بالبحيرة وهو تابع لشركة إنجليزية لاستصلاح الأراضى أسسنا نقابة عمالية كجزء من موجة النقابات التى انتشرت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ وكان يرأس النقابة عبد الحميد أفندى العتال الذى كان ينفق عليها من ماله الخاص ويعاونه محمد أفندى سلامة وأنا.. واتسع نشاط النقابة فى موجهة ضغط أصحاب الشركات وتدخلت الاتحادات العمالية فى دمنهور والإسكندرية لتأييدنا هناك وعن طريقهم انضممنا إلى الحزب الاشتراكى»[٢].

ولم يكن هذا هو السبيل الوحيد للعمل الجماهيرى الذى شقه روزنتال فى طريق تأسيس الحزب فقد نظم حملة جماهيرية للمطالبة بتحديد إيجارات المساكن من خلال اتحاد المستأجرين.. وقد نجحت هذه الحملة نجاحا كبيرا قال عنها روزنتال فى شهادته أمام النائب العام «لقد وافق هذا السعى فى نفس الجمهور فهبت الصحف تساعدنى فى هذا الحمل ونشرت اسمى مرارا»[٣].

وهكذا يلتقى طريقان يولدان معا ممكنات حقيقية لنشوء حزب اشتراكى فاعل.. فالحركة الوطنية تتألق فى أوج نشاطها وحيويتها وحركة الطبقة العاملة تتصاعد.. «ولقد لعب الحزب منذ أيام نشأته الأولى دورا بارزا فى تعميق وتأكيد دور الحركة العمالية فى أيام نهضتها الأولى»[٤].

لقد أصبح الجو مهيأ للعمل ولإعلان الحزب..

لكن الجميع يؤكدون أن الحزب كان موجودا من قبل وأن روزنتال كان قد أسس فعلا حزبا من الأجانب فى الإسكندرية..

أما الجديد فهو ظهور جماعة من المصريين تسعى لتأسيس حزب اشتراكى مصرى.. والأسماء كثيرة، سلامة موسى، د. على العنانى، محمد عبد الله عنان، الشيخ صفوان أبو

الفتح، أحمد المدنى، حسنى العرابى، أنطون مارون، حسين نامق، حسن محيسن والشيخ عبد اللطيف بخيت.

ويقول على العنانى «إن النفس لتائقة منذ أمد بعيد إلى وجود اتحاد اشتراكى من الوطنيين»[٥].

ويقول سلامة موسى «إن الدكتور العنانى هو وجماعة من الشبيبة المستنيرة رأيا تأليف جمعية اشتراكية لدرس مذاهب هذا المذهب المتعدد»[٦].

ويقول سلامة موسى فى مقال نشره فى اليوم التالى بالأهرام بعنوان «الاشتراكية المصرية»:

«اجتمع عدد غير قليل من الاشتراكيين المصريين وأكثرهم من الذين عاينوا بأنفسهم النضال القائم فى أوروبا بين رأس المال والعمل وقر رأيهم على تأليف جمعية تضم شملهم وتمكنهم من المذاكرة فى زرع هذا المذهب وتطبيقه على الأحوال المصرية»[٧].

ونستمع إلى رواية أخرى من واحد من أقدم الاشتراكيين المصريين.. مصطفى حسنين المنصورى:

«وصلنى خطاب باللغة الفرنسية يدعونى إلى اجتماع سيعقد فى إحدى الدور أمام حديقة الأزبكية ويشرح فيه أحد الأجانب نظرية الاشتراكية.

وفى هذا الاجتماع قابلنى كل من سلامة موسى وعبد الله عنان ولم أكن أعرفهما من قبل. وحضر الاجتماع حوالى عشرين شخصا..»

وبعد يومين أو ثلاثة يستدعى المنصورى لمقابلة محافظة القاهرة..

«.. فلما ذهبت إلى محافظة القاهرة وجدت من حضر الاجتماع هناك واستقبلنا المحافظ وسألنا عن سبب حضورنا لاجتماع فعرفناه بأنا حضرنا من باب حب الاستطلاع وبدعوة موجهة إلينا فقال: إن المحاضر شيوعى ونصحنا بعدم العودة، وإلا تعرضنا للعقاب»[٨].

وهكذا يمكن للصورة أن تتضح..

* روزنتال اشتراكى أجنبى يتمتع بخبرة واسعة وبوضوح نظرى وعلاقات قديمة بالعمل النقابى ويستفيد من ذلك ومن نفوذه وسط النقابيين بالإسكندرية ووسط الأجانب فيحاول أن يؤسس حزبا اشتراكيا بين الأجانب أساسا ومن خلال العمل النقابى والعمالى والأنشطة الأخرى.

* مجموعة من المثقفين المصريين معظمهم - كما يقول سلامة موسى - من المثقفين المتأثرين بالفكر الأوروبى لكنهم مثقفون دووا مكانة محترمة فى المجتمع آمنوا بالاشتراكية وفقا لاتجاهات متفاوتة تتراوح بين الفابية واشتراكية الدولية الثانية والماركسية اللينينية.

وهم يفتقرون إلى الوحدة الفكرية، وإلى الوضوح حتى حول حقيقة الخلاف بين هذه المدارس المختلفة، ولا يملكون معرفة كافية بأساليب ومناهج النشاط الحزبى. ولا يدركون حقيقة الهوة التى تفصلهم عن بعضهم البعض ويتصورون أن مجرد إعلان كل منهم أنه اشتراكى يكفى كى يضموا جهودهم معا فى حزب واحد.

وكان من الطبيعى أن تسعى المجموعتان إحداهما إلى الأخرى من أجل تأسيس حزب اشتراكى واحد..

لكن من سعى إلى الآخر.. هناك روايتان..

يقول سلامة موسى «إنهم كتبوا إلى روزنتال.. يسألونه عن برنامج حزبه».

وينكر العنانى أن روزنتال هو الذى أقنعه« لأنى مع إعجابى بهذا الرجل لست فى حاجة إلى أن آخذ عنه بل فى حاجة لرده إلى ما قد مارسته طويلا من تعرف على هذا المبدأ»[٩].

أما روزنتال فيورد الأمر بطريقة أخرى مصورا أنه صاحب الفكرة فبعد أن يتحدث فى شهادته أمام النائب العام عن تحدث الصحف عن جهوده يقول «فرأيت من بعض الوطنيين عطفا على الاشتراكية وكان من هؤلاء المتعاطفين حسنى العرابى والدكتور على العنانى وسلامة موسى وعبد الله عنان فاتفقت معهم على العمل وقررنا تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى. وقد كتبوا لهذا الغرض منشورا يحتوى على مبادئ الحزب موقعا عليه منهم ولم أشترك فى التوقيع عليه لأنى كنت أعتبر أن ظهوراسمى الأجنبى بالرغم من كونى مصرى الجنسية يمكن أن يعد بمثابة تدخل أجنبى فى مسألة مصرية».

وعلى أية حال وسواء أكانت المجموعة المصرية هى التى أرسلت رسالة إلى روزنتال أو كان روزنتال هو الذى سعى إليها بحثا عن وجوه مصرية يستند إليها، فقد اجتمع ممثلوا المجموعات الاشتراكية المختلفة حوالى منتصف شهر أغسطس ليناقشوا الأمر.

ولم يكن النقاش سهلا فالخلافات الفكرية عميقة جدا، وأى اتفاق لن يعنى سوى تلفيق بيان وسطى بين أطراف متنازعة.

وكانت المفاوضات تجرى فى سرير غير أن مراسل الأهرام بالإسكندرية –وهو شخص أثبت طوال السنوات التالية نشاطاً ملحوظا واهتماما مبالغا فيه بنشاط الحزب– يفاجئ الجميع بنشر الخبر التالى:

«يسعى المسيو روزنتال منذ أمد بعيد لتأليف حزب اشتراكى فى هذه البلاد وبدأ عمله بالمطالبة بحقوق المستأجرين ثم باتحاد النقابات، مع مواصلة السعى لإقناع جماعة من المواطنين بأن يماشوه فى مشروعه وقد نجح بأن أقنع الدكتور عبى أفندى العنانى بأن يكون سكرتير الفرع الوطنى كما يكون هو ذاته أى روزنتال سكرتير الفرع الفرنساوى والإنجليزى كما يكون الخواجا بيريديس سكرتير الفرع اليونانى.. ولا شك بأن هذا الحزب سيعلن برنامجه ولا شك بأن هذا البرنامج سيتضمن وعودا طيبة ولكن الوعد شىء والعمل شىء آخر.

إن حالة البلاد الاجتماعية تقتضى علينا وعلى كل عامل إصلاحاتها برقابة حزب كهذا لا لأننا نكره التعاليم والمذاهب الاشتراكية العلمية، بل لأنا نكره النظريات المتطرفة التى تقضى بالطفرة ونحن نود التطور رويدا رويدا ولا نعرف مذهب الدكتور العنانى من هذه الوجهة ولا ما هى اشتراكيته.. وهل هى متطرفة أو عملية ولكنا نعرف شيئا من مذهب المسيو روزنتال، ونعرف شيئا ما بسطه لرؤساء النقابات الوطنية فنعرف أنه اشتراكى متطرف.. وقد تجاوز حدود التطرف فهل الدكتور العنانى من مذهبه؟»(١٠).

وسواء أكان الأمر مجرد سبق صحفى يحرزه مراسل نشط أو كان وقيعة ماكرة بين المجموعة المصرية وروزنتال، ومحاولة لضرب الوحدة بينهما.. أو كان بداية لحملة معادية..

فإن نشر الخبر قد فاجأ الجميع وهم مختلفون..

– مختلفون حول الأسس النظرية..

– بل ومختلفون هل يعلن حزب سياسى أم جمعية علمية؟.

– ومختلفون حول من يكون السكرتير العام؟

ولقد كانت هذه الخلافات جدية وتتطلب تصفية حقيقية إذ بدون اتفاق حقيقى حولها يصبح البناء مهددا بالانهيار فى أى وقت.. وفى محاولة لإسكات مراسل الأهرام والحملة المعادية التى فجرها، أقيم البناء على عجل وبغير اتفاق جدى.

لكن ما هى حدود الخلاف بين محاولى التوصل إلى اتفاق؟.

أولا: الخلاف الأيديولوجى:

ولقد كان الخلاف خطيرا وحادا بين جميع الأطراف.. وقد تفجر الخلاف صريحا على صفحات الأهرام فى الأيام التالية وقد أفسحت الأهرام صدرها لتنشر آراء الجميع ولعلها كانت محاولة ماكرة لتثبت مدى عمق الخلاف بين هذه الأطراف.

فروزنتال شيوعى لا يخفى شيوعيته ولم يخفها فى يوم من الأيام.. بل إنه وعندما كان الشيوعيون يطاردون ويرسلون إلى السجون يكتب فى الأهرام صراحة «لقد كنت وما زلت ولا أزال حتى آخر نسمة من حياتى شيوعياً كاملا ومخلصا إخلاصا تاما لقضية البروليتاريا»[١١].

وثمة شيوعيون آخرون بين المصريين لم يخفوا شيوعيتهم أيضا منهم الشيخ صفوان أبو الفتح وأنطون مارون.

ولنتأمل الآن كلمات شخص وقع رسالته إلى الأهرام بإمضاء «اشتراكى صميم»:

«إن برنامج الحزب قد يصبح أعمالا جليلة تقضى إلى تحطيم تلك الأغلال الظالمة التى ضربها رأس المال على العمل فى مصر.. إن الحالة الاجتماعية لأى بلد لا تتنافى مع المبادئ الاشتراكية التى ليست إلا نداء بتأييد الحقوق الطبيعية للإنسان ودعوة لتحطيم تلك الأنظمة الاستبدادية التى قضت بأن تضطهد الجماعات الرأسمالية طوائف المجتمع بأسره وأن تتسع الهوة بين الرفاهية والفاقة وبين النعيم والشقاء وأن يطلق العنان للقوى الغادرة لتبطش الضعيف المهيض سواء كان ذلك المعتدى شعبا على شعب أو فردا على فرد».

ثم يواصل الاشتراكى الصميم دفاعه عن مبادئه قائلاً «إذا كنتم تريدون من طرف خفى أن تقولوا أن حزبا اشتراكيا يؤسس فى بلدنا لا بد وأن يتصل بموسكو دعامة الدعوة وفخار العمل ورعب رأس المال، فهذا ما أخالفكم فيه لأن مبادئ موسكو أو البلشفية وإن كانت مثلا أعلى للمبادئ الاشتراكية فإن عدم ملاءمتها الحالة الاجتماعية فى بعض البلاد يرجع لظروف خاصة لا يتسع المقام للإفاضة فيها».

هكذا وبصراحة يصف موسكو بأنها «دعامة وفخار العمل ورعب رأس المال».. ويصف البلشفية بأنها «مثل أعلى للمبادئ الاشتراكية».

أما سلامة موسى فنحن نعرف رأيه فهو يابى ضد البلشفية وضد الثورة.

وحسنى العرابى كان منشغلا فى ذلك الحين بترجمة كتاب ماكدونالد زعيم حزب العمال الإنجليزى.

وعبد الله عنان طالعنا أيضا رأيه فى فصل سابق وهو فى أحسن الأحوال واحد من اشتراكيى الدولية الثانية..

وعلى العنانى.. يعلن أنه يريد حزبا «يحصر نفسه فى حدود الاعتدال للإرشاد إلى ما فى الشرائع من مبادئ المساواة والعدالة بين الناس..» وهو يدعو إلى «الأخذ بما تطلبه طبيعة البلاد وتقره الأحكام الشرعية وتسعه قوانينا الدستورية» ويسمى مذهبه «الاشتراكية العملية المعتدلة»[١٢] وهو لصيق بالفلسفة الهيجلية إلى حد أنه يمكن اعتباره مجرد «هيجلى يسارى» وفيما بعد شغل العنانى نفسه كثيرا بالدعوة لأفكار هيجل وآرائه.

وهكذا يتضح إلى أى حد كان الخلاف الأيديولوجى مستحكما..

فماذا عن نقطة الخلاف الأخرى؟

حزب سياسى أم جمعية علمية..

عندما فاجأ الأهرام الجميع بنشر هذا الخبر كانت المجموعة لم تتفق بعد حول هذه القضية الأساسية، بل لم تكن قد ظهرت بعد بوادر حول هل سيمكن لها أن تتفق أم لا؟

ففى ١٩ أغسطس ١٩٢١ يكتب «اشتراكى صميم» إلى الأهرام قائلا: «أرجو ألا تنقموا منذ الساعة على جماعة لم يلتئم شملها بعد».

وفى نفس اليوم يكتب د.على العنانى إلى الأهرام أيضا قائلا: «ومن أين للراوى جاءت العقيدة بتكوين هذا الحزب مثلا؟ أفلا يصح أن يكون الموضوع قاصرا على تأسيس جمعية علمية تدرس المبادئ الاشتراكية مقرة ما يناسب منها ومنتقدة ما تراه ضارا؟!».

كذلك كتب سلامة موسى قائلا: إنه ما لم يتم اتفاق حول تأسيس الحزب فإنهم «يؤلفون جمعية غايتها الدرس أكثر من السياسة»[١٣].

والحقيقة أن هذا الموقف يمكن تفسيره من خلال سلسلة من الظواهر. فإن بعض المثقفين كان يدرك مدى افتقارهم إلى الدراسة النظرية المتعمقة، وكانت طلائع المثقفين والليبراليين المصريين كما شاهدنا فى فصل سابق قد عكست فى أفق الفكر المصرى آراءا وكتابات متسرعة حول مختلف المدارس الفكرية.

ولم يكن الفارق الجدى واضحا بين هذه المدارس، ذلك أن الفارق الجدى لا يتضح إلا عندما تتحدد واجبات نضالية.

ولهذا فإن الخلاف يمكن تبسيطه كما يلى:

البعض يقول لننتظر فترة ندرس فيها ونتناقش ونختار.. ولننظم هذا الدرس وهذه المناقشة من خلال جمعية علمية..

والمجموعة الأخرى ترى أن البدء فى العمل النضالى وإعلان الحزب هو السبيل الأفضل لحسم الخلافات وتحقيق التمايز..

ثم إن هناك مسألة ثانية وهى أن النقاش كان يجرى فى عام ١٩٢١ وفى هذا العام بالذات كان الوفد المصرى - الذى جسد وحدة الأمة- تتهدده الانقسامات، وكان الشعار السائد وسط الجماهير أن أى إعلان لحزب جديد هو تفتيت لوحدة الأمة، وخروج على زعامة سعد، ولعلنا نلمح ذلك كثيرا فى كتابات معارضى الحزب الذين اتهموه بتقسيم الصفوف وبتعجيل الخلافات الطبقية قبل الاستقلال. كما أن الوفد كان بنفوذه الكبير يعرقل أية محاولة كهذه ويتهمها بالانقسامية..

وهناك ثالثا تلك الحجة التى ترددت كثيرا وهى أن إعلان حزب اشتراكى فى مصر قد يخيف الإنجليز ويؤدى بهم إلى عدم الجلاء.

السكرتير العام من يكون؟

ولقد كانت هذه المجموعة تضم عديدا من المثقفين المرموقين والمناضلين الذين أثبتوا نضاليتهم وقدرتهم على القيادة خلال أحداث ثورة ١٩١٩.

كان من بينهم كتاب مشهورون مثل سلامة موسى وعبدالله عنان.. ورجال دين محترمون مثل الشيخ صفوان أبوالفتح..

والذيْن استطاع بعضهم أن يجمع نقابات تضم ٣٥ ألف عامل بناء على نداء نشره فى الصحف لإقامة اتحاد لهم. وهكذا كان من الصعب أن يفرض واحد منهم نفسه على الآخرين.

كذلك فإن الحزب لم يكن تتويجا لعمل تنظيمى قديم حتى ولو كان مبعثرا فيمكن لهذا العمل التنظيمى السابق أن يقدم مقياسا لاختيار السكرتير العام..

لكن الحزب كان بداية لعمل جديد،.

ولم يتعد العمل التنظيمى الذى سبقه عن تكوين خلايا متفرقة لم ترتق إلى مضاف العمل الحزبى الحقيقى.

كان الحزب الجديد إذن بداية تتطلع إلى قائد، فمن من هؤلاء كان يتطلع إلى القيادة؟

روزنتال أعلن مسبقا أن كونه أجنبيا يمنعه من ذلك.. بل إنه لم يوقع مع الأربعة بيان إعلان الحزب قائلا: فى شهادته «لم أشترك فى التوقيع عليه لأنى كنت أعتبر أن ظهور اسمى الأجنبى بالرغم من كونى مصرى الجنسية يمكن أن يعد بمثابة تدخل أجنبى فى مسألة مصرية»[١٤].

وعلى العنانى الذى رشحته الأهرام للسكرتارية العامة كتب يقول: إن هذا غير صحيح «فلو عرف المدعى حدود مهمتى وشيئا عن مبادئى لما صح له هذا الرجم بالغيب لأن هذا العمل لا يلتئم أيا كان وفى أى دائرة وجدت مع دوائر أعمالى الأصلية فما دار لى هذا يوما ما بخلد ولا عرضه على إنسان ولن يخطر لى أبدا على بال»[١٥].

بين من إذن انحصر الصراع؟

إن التتبع الدقيق لكتابات قادة الحزب فى تلك الأيام يوضح لنا حقيقة مهمة هى أن سلامة موسى كان يريد هذا المنصب لنفسه.

وإن المجموعة الأخرى لم تكن تريده له..

هو يريد المنصب محتجا بنفوذه الفكرى والأدبى وشهرته الواسعة..

وهم لا يريدونه لأنه مجرد فابى ويشعرون بأن تسليم قيادة الحرب له خطر على الحزب وعلى اتجاهاته..

لم يكن الصراع إذن شخصيا؟ بل كان امتدادا للصراع الأيديولوجى الذى اشتعل بين القادة – الذين لا يعرفون شيئا عن قواعد الانضباط الحزبى – على صفحات الجرائد.

هل القيادة للفابيين والإصلاحيين أم للماركسيين..؟

وحاول سلامة موسى أن يفرض نفسه مستخدما أسلوبا فريدا يستحق التأمل فما أن نشر الأهرام خبره المفاجىء عن مباحثات تأسيس الحزب فى ١٦ أغسطس حتى سارع سلامة موسى لينشر فى عدد اليوم التالى رسالة بعنوان «الحزب الاشتراكى» يقول فيها «ولما كنت واقفا على حقيقة الحال أعلن للقراء أن الدكتور العنانى ليس سكرتيرا»[١٦].

لكن سلامة موسى كان فى عجلة من أمره ويريد أن يضع المتفاوضين أمام الأمر الواقع وانتهز الفرصة ليصدر فى ٢٣ أغسطس «نداء إلى الأمة المصرية» تنشره الأهرام موقعا باسم سلامة موسى سكرتير الحزب الاشتراكى المصرى.

وهذا النداء يستحق التأمل لا لأن سلامة موسى قد وقعه كسكرتير للحزب فقط وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى فعل فيها ذلك..

ولكن لأن سلامة موسى كان يحاول فيه أن يساوم التيار الماركسى وأن يتقرب منه مؤملا أن يقبلوا بذلك وضعه كسكرتير للحزب..

فالنداء يناشد الشعب المصرى وجمعيتى الهلال الأحمر والصليب الأحمر جمع تبرعات الشعب الروسى الذى يعانى من المجاعة.. والمهم فى هذا الأمر هو أنه يقول «لقد قضى الشعب الروسى ثلاثة قرون وهو رازح تحت نير الاضطهاد والعبودية فى جهل مطبق وفقر مدقع.. وعندما استيقظ من غفلته وشاء أن يحيا حياة جديدة فاجأته الطبيعة بآفاتها»[١٧].

ولنقارن هذه الكلمات بكلمات أخرى نشرها سلامة موسى قبل خمسة أيام فقط فى الأهرام يقول فيها «إن البولشفية الروسية قد أخفقت إخفاقا يكاد يكون تاما ونشرت على ربوع البلاد الروسية ألوية الخراب والدمار»..

بينما هو الآن ينسب المجاعة إلى سببها الأصلى «الآفات الطبيعية» ويصف الثورة بأنها «استيقاظ للشعب من غفلته ورغبته فى أن يحيا حياة جديدة»..

المهم أن المناورة لم تفلح واختارت المجموعة سكرتيرا عاما آخراً هو محمد عبدالله عنان..

ولعل اختياره كان نوعا من الموازنة بين الاتجاهات المختلفة وإذا كانت عناصر الوسط قد استطاعت أن تحتل هذا المركز مستفيدة من الصراع بين سلامة موسى وبين الشيوعيين فإن هؤلاء الشيوعيين قد تركوا هذه العناصر البرجوازية الصغيرة تتصارع على اللقب بينما تمركزوا هم فى أكثر الأماكن حساسية وأهمية فالشيخ صفوان أبوالفتح أصبح سكرتيرا عاما لاتحاد نقابات العمال وأنطون مارون مستشارا للاتحاد.

والحقيقة أن نشر الأهرام المفاجئ لخبر محاولات تأسيس الحزب قد أضر هذه المحاولات ضررا بالغا.. فقد فجر الصراع الأيديولوجى على صفحات الجرائد وأوضح للجمهور مدى الخلاف الفكرى بين مؤسسى الحزب.

ولكننا ولكى نكون منصفين نود أن نقول أن الذين انجرفوا إلى هذا التيار كانوا أقلية وكانوا فى الأساس يمثلون الاتجاهات الفكرية التى توشك أن تنهزم بتأسيس الحزب: الفابية (سلامة موسى).. الاتجاه الهيجلى (على العنانى) اشتراكية الدولية الثانية (عبدالله عنان)..

أما الآخرون فلم يشتركوا فى النقاش، ربما لأنهم وجدوا أن الاشتراك فيه ضار بوحدة الحزب الذى يوشك أن يتأسس..

وربما لأنهم كانوا أكثر خبرة بأساليب الصراع الحزبى..

المهم أن أحدا من الماركسيين لم يشترك فى هذا النقاش العلنى.

والوحيد الذى اشترك بكلمة رصينة غاية فى التحديد لم يكتب اسمه واكتفى بأن يسمى نفسه «اشتراكى صميم».

وبالرغم من كل ذلك، وبالرغم من أن هؤلاء الناس قد صادفتهم مصاعب جمة: مصاعب تتعلق بالأيدويولوجية وأخرى تتعلق بالظروف الموضوعية للمجتمع المصرى وثالثة تتعلق بالواقع السياسى للفترة التى بدأوا فيها العمل.. فقد استطاعوا أن يتوصلوا إلى ما يشبه الاتفاق..

وفى ٢٩ أغسطس أصدر الحزب برنامجه الذى سنحاول تقويمه فيما بعد..

لكننا يتعين علينا قبل ذلك أن نشير إلى بعض اللبس الذى أحاط بموضوع البرنامج.. ذلك أن الدراسات التى تتناول هذا الموضوع تشير إلى برنامجين مختلفين تماما دون أن ينتبه الكثيرون إلى اختلافهما التام فى الأهداف والأسلوب والصياغة.

والبرنامج الأول هو الذى نشره شهدى عطية الشافعى فى كتابه «تطور الحركة الوطنية» طبعة الدار المصرية للطباعة والنشر ١٩٥٧ ص٤٢.

وقد أشار شهدى فى كتابه هذا إلى أن البرنامج قد نشر فى عدد الأهرام الصادر فى ١٤ فبراير ١٩٢١ ونقل عنه ذلك عدد من الكتاب دون تدقيق.

منهم على سبيل المثال عبدالمنعم الغزالى، المرجع السابق ص٨٧ وقد أورد البعض فقرات من هذا البرنامج.. دون الإشارة إلى المصدر وإنما اكتفى بالتقرير أنها فقرات من برنامج الحزب[١٨].

وفيما يلى نص هذا البرنامج: «يعمل الحزب على استقلال وادى النيل بأسره» استقلالا خاليا من كل شائبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

أولا:

١) جلاء الجنود الإنجليز عن مصر والسودان وعدم الاعتراف للغاصب بأى مركز ممتاز.

٢) عدم الاعترام بالمعاهدات والاتفاقات التى أجريت خلسة من الشعب وعلى كره منه.

٣) جعل قناة السويس ملكا للأمة.

٤) تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية.

٥) إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية كقانون الاجتماع والأحزاب.

ثانيا:

١) الاعتراف بهيئات العمال رسميا وبحقها فى الدفاع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا عن مصالحها.

٢) تنظيم العمال غير المنظمين وضمهم فى اتحادات وضم الاتحادات إلى بعضها فى اتحاد عام وربطه بالاتحاد العام الدولى.

٣) الدفاع عن قانون ٨ ساعات عمل فى اليوم ومساواة العمال المصريين والأجانب العاملين فى عمل واحد. وعمل تشريع لحماية العمال المرضى والعاطلين، إلخ..

٤) تأليف تعاونيات للإنتاج والتوزيع.

٥) تمثيل العمال وفقراء الفلاحين تمثيلا صحيحا فى البرلمان.

ثالثا:

١) للنساء التمتع بالحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢) المطالبة بجعل التعليم إجباريا للجميع بنين وبنات، وأن يكون مجانيا للفقراء مع إصلاح برامج التعليم الحالية.

٣) محاربة الأمية بجميع الوسائل.

رابعا:

١) تنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات وإيجاد صلات بينها وبين نقابات العمال مع العمل على ربطها باتحادات الفلاحين الدولية.

٢) إلغاء نظام ملكية العزب التى لا تختلف كثيرا عن نظام الإقطاعيات.

٣) إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فدانا.

٤) إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب.

٥) وضع ضرائب على مياه الرى للذين يملكون أكثر من ١٠٠ فدان.

٦) إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين.

خامسا:

١) المطالبة بالاعتراف بحكومة الجمهورية الروسية.

٢) العمل على التفريق بين الجرائم السياسية وغيرها أمام المحاكم المصرية والإفراج عن المسجونين السياسيين دون تفرقة.

٣) طلب محاكمة أذناب الاستعمار من كبار المصريين ممن تقع عليهم مسئولية الإرهاب والاستبداد ومعاونة الأجنبى على إخماد نهضة الشعب.

لكن ثمة شيئا لفت نظرى وهو أن الأهرام قد نشر أول خبر عن محاولات تأسيس الحزب فى ١٦ أغسطس ١٩٢١ وأنه أشار فى هذا الخبر إلى «أنه لا شك فى أن هذا الحزب سيعلن برنامجه» بما يوحى بأن الحزب لم يكن قبل أغسطس قد نشر برنامجه.

وثانيا: إن الحزب قد نشر بالفعل فى أهرام ٢٩ أغسطس وثيقة بعنوان «بيان الحزب الاشتراكى» وهى ما سنناقشه فيما بعد كبرنامج للحزب.

وثالثا فإنه بالبحث فى عدد الأهرام الصادر فى ١٤ فبراير ١٩٢١ لم نجد به أى إشارة إلى صدور هذا البرنامج.

فما هى حقيقة هذا الأمر إذن.. وما هى هذه الوثيقة التى نشرها شهدى كاملة مشيرا إلى أنها برنامج الحزب..

ذلك أنه بغض النظر عن خطأ تاريخ ١٤ فبراير ١٩٢١ فإن مؤرخا مؤتمنا ودقيقا مثل شهدى لا يمكن أن يكون قد اختلق هذه الوثيقة اختلاقا..

وثمة احتمالان أطرحهما للنقاش..

الأول: أن يكون هذا البرنامج هو واحد من المشاريع التى لا بد وأن المجموعات المختلفة التى كونت الحزب قد أعدت كثيرا منها كمحاولات لإقناع الآخرين بها وإصدارها كبرنامج للحزب الجديد.. وهذا احتمال أستبعده.

أما الاحتمال الثانى: - وهو الأرجح - أن يكون البرنامج الذى نشره شهدى هو البرنامج المعدل الذى أصدره الحزب بعد انضمامه للكومنترن.. و لذى يقول لاكور[١٩]: إن الحزب قد أصدره فى كراسة صغيرة باللغة العربية واللغة الفرنسية..

لكن لماذا نرجح هذا الاحتمال الثانى؟

أولا: لأن لاكور وهو يناقش هذا البرنامج الجديد الذى قال: إن الحزب أصدره بعد انضمامه للكومنترن يشير إلى الفقرات التى تتعلق بتأميم قناة السويس، وإسقاط ديون الفلاحين الذين تقل ملكياتهم عن ٣٠ فدانا.. وإعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب..

وهذه المطالب كلها واردة فى البرنامج الذى نشره شهدى.. وغير واردة فى برنامج ٢٩ أغسطس ١٩٢١ وهى دليل على جدية الوثيقة التى نشرها شهدى.

ثانيا: أصدر أحد أعضاء الحزب الاشتراكى وهو حسين نامق كتابا بعنوان «خلاصة الاقتصاد» فى أغسطس ١٩٢٢[٢٠] وقد نشر برنامج الحزب موردا نص برنامج ٢٩ أغسطس ١٩٢١ بما يوحى بأن البرنامج المنشور بكتاب شهدى عطيه قد صدر بعد عام ١٩٢٢.

ثالثا: إن البرنامج يتضمن نصا يقول «عدم الاعتراف بالمعاهدات والاتفاقات التى أبرمت خلسة من الشعب وعلى كره منه».

ولا شك فى أن واضعى البرنامج يقصدون تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

رابعا: البرنامج يطالب «بتعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقة».

إذن هذا البرنامج موضوع بعد إعلان دستور ١٩ أبريل ١٩٢٣.

لكل ذلك فإننا سنرجىء محاولة تقويم هذا البرنامج إلى صفحات قادمة ستناقش فيها دور الحزب بعد انضمامه إلى الكومنترن وسوف نعتبر أن الوثيقة المنشورة فى أهرام ٢٩ أغسطس هى وحدها برنامج الحزب الاشتراكى المصرى إلى حين انضمامه للكومنترن.

فما هى الوثيقة؟

«بيان الحزب الاشتراكى المصرى».

فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم تبث النظم والمبادىء الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الإنسانى، والقضاء على آفات المستعمرين المستغلين الذين سلبوا حرية الشعوب والأفراد وسعوا إلى تحقيق رفاهيتهم بالاضطهاد المريع للأمم والمجتمعات المستضعفة وليس أبلغ إيضاحا للمأساة المحزنة التى تمثلها الآن تلك النظم المستبدة من أن أغلب الأمم قد انتهكت حريتها واهتضمت حقوقها دولا استعمارية تسود فيها تلك النظم، وأن الأغلبية الساحقة فى المجتمع الحاضر قد استعبدتها أقلية صغيرة متعدية تستأثر برؤوس الأموال وأرزاق الطبيعة ثمرة كدها وجهادها..

ولقد امتدت يد الاستعمار والأفتيات إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعيا إلى استثمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها. وكذلك تسيطر تلك النظم على المجتمع المصرى سيطرة سحقت معها دولة العمل وبطش بها رأس المال بطشا شائنا مرهقا أدى إلى خلق الغنى الفاحش والبأساء البالغة جنبا لجنب واتساع الهوة بين الرفاهية والفاقة.

لذلك كان من الضرورى أن يمتد إلى تلك البلاد صراع المبادئ الاشتراكية العادلة للنظم الرأسمالية سعيا إلى تخفيف ظلمها وويلها الفادح. وتحقيقا لتلك الغاية نهض إخوان العمل فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكى وهذه هى مبادئه التى سيعمل على تحقيقها:

المبادئ السياسية:

١- تحرير مصر من نير الاستعمار وإقصاء ذلك الاستعمار عن وادى النيل بأسره.

٢- تأييد حرية الشعوب واختيار المصير، والتآخى مع جميع الأمم على قاعدة المساواة والمنفعة المتبادلة.

٣- محاربة الاستعمار ومقاومته أينما وجد.

٤- مقاومة العسكرية والديكتاتورية وأنظمة التسليح فى البر والبحر والهواء.

٥- مقاومة الاعتداء والحرب الهجومية.

٦- إلغاء المعاهدات السرية.

ومبادىء الحزب الاقتصادية هى:

العمل على إلغاء استغلال جماعة لأخرى ومحو التفريق بين طبقات المجتمع فى الحقوق الطبيعية وإخماد استبداد المستغلين والمضاربين والسعى إلى إنشاء مجتمع اقتصادى يقوم على دعائم المبادئ الاشتراكية الآتية:

١- توحيد الثروة الطبيعية ومصادر الإنتاج العامة لمجموع الأمة.

٢- التوزيع العادل للثمرات على العاملين طبقا لقانون الإنتاج والكفاءة الشخصية.

٣- إخماد المزاحمة الرأسمالية.

أما المبادئ الاجتماعية فهى:

١- إعتبار التعليم حقا شائعا لجميع أفراد الأمة نساءً ورجالا بجعله مجانيا ملزما والعمل على نشر التعاليم الديمقراطية الصحيحة بين جميع طبقات الأمة.

٢- العمل على تحسين حال العمال بتحسين الأجور وتقرير المكافآت والمعاشات حين العجز والعطلة القهرية.

٣- العمل على تحرير المرأة الشرقية وتربيتها تربية سليمة منتجة.

وسيعمل الحزب على تحقيق مبادئه المذكورة بالصراع الحزبى والدعوة السلمية مستعينا فى ذلك بالعمل على تحقيق ما يأتى:

١- إنشاء النقابات الزراعية والناعية الحرة ونقابات الإنتاج والاستهلاك.

٢- إعداد نواب اشتراكيين للبرلمان والمجالس النيابية المحلية والبلدية وغيرها.

٣- تحرير حقوق النيابة والانتخاب من القيود المالية وغيرها وتعميمها بالنسبة للرجل والمرأة على قدر المستطاع.

٤- الدعوة بطريق النشر والخطابة.

هذا ونرجو أن يوفق الحزب إلى العمل على تحقيق تلك الغايات السامية مستعينا بعطف الأمة وحسن ظنها.

على العنانى «سلامة موسى»، محمد عبدالله عنان، حسن العرابى «حاشية» طلبات الانضمام ترسل مؤقتا إلى سكرتير الحزب.

محمد عبدالله عنان - بجنينة الناصرية - بالسيدة زينب.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذا البرنامج هو ثمرة صراع بين القوى المختلفة داخل الحزب الوليد.. وفى ظروف كهذه تصبح الكلمات مطاطة وتحتمل معانى كثيرة وتصاغ بحيث تستطيع كل الأطراف أن تفسرها على هواها.

وقد تأثرت صياغة البرنامج بطبيعة الحال بهذه الحملة التى تزعمتها جريدة الأهرام والتى شاركت فيها قوى عديدة: الوفديين.. الحزب الوطنى (فكرى أباظة) وحتى الجناح اليسارى للحزب الوطنى (عصام الدين حفنى ناصف).. الجناح اليمينى فى الحزب الديمقراطى (حسين هيكل).. رجال الدين (الشيخ التفتازانى).. وآخرين كثيرين..

وتأثرت أيضا بالظروف الموضوعية للمجتمع، والرغبة فى نفى صفة التطرف من الحزب، وبالمعركة الوطنية التى تسيطر على كل الأذهان..

وهكذا خرج البرنامج معتدلا إلى حد ما، مكتفيا بالصياغات العامة مثل إلغاء استغلال جماعة لأخرى ومحو التفريق بين الطبقات فى الحقوق الطبيعية.

وبعبارات غامضة مثل «توحيد الثروة الطبيعية».

وهو يحرص على تحديد أسلوب نضاله «بالصراع الحزبى والدعوة السلمية».

لكنه بالرغم من ذلك كان برنامجا اشتراكيا يعبر عن وجهة نظر اشتراكية واضحة ويتضمن مطالب محددة لعديد من فئات الأمة.. العمال المثقفين، الطلاب، النساء، رجال المهن وإن كان قد أغفل إيراد أى نص يتعلق بالمطالب الفلاحية.

ولسنا نستطيع أن نلوم الحزب الوليد على ذلك.

فالمشكلة الزراعية هى أعقد المشاكل فى مصر، وجماهير التحالف (صغار الفلاحين) هم بالرغم من كونهم فقراء ومطحونين إلا أنهم ملاك، سرعان ما تتحرك فيهم نزعة البرجوازى الصغير الحريص على ما يمتلك.

وعلى أية حال فإن هذا البرنامج كان خطوة مهمة فى سبيل إرساء التعاليم الاشتراكية فى المناخ المصرى، لعلها كانت بحاجة إلى بعض النضج، لكن الطريق الوحيد للنضج كان الكفاح اليومى بين الجماهير، جماهير العمال والفلاحين والمثقفين.. وهذا ما قام به الحزب على الفور وبكفاءة ممتازة.

كذلك لايمكن أن تفوتنا تلك اللمحة العبقرية.. الربط بين الاستعمار والرأسمالية ومحاولة الاستفادة من السخط الوطنى ضد الاستعمار لخلق سخط ضد الرأسمالية المصدر الأساسى للاستعمار.

الهوامش

(١) الأهرام ١٩٢١/٩/٢

(٢) عبد الرحمن فضل. مخطوط لم ينشر بعنوان «مقدمة لتاريخ الحركة العمالية فى مصر» وراجع أيضا مجلة المصور ١٩٩٦/٣/١١ صبرى أبو المجد مقال بعنوان «هذا النجار المصرى تدرس قضيته فى كلية الحقوق».

(٣)الأهرام ١٩٢٣/٣/٧.

(4) selma botman - the rise and experience of egyptian communiem studies in the comparative communism- vol . xvlll, no i. spring 1985- p 49

(٥) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩.

(٦) الأهرام ١٩٢١/٨/١

(٧) الأهرام ١٩٢١/٨/١٨

(٨) أمين عز الدين، المنصورى، سيرة مثقف ثورى- المرجع السابق- ص٤٦.

(٩) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩.

(١٠) الأهرام ١٩٢١/٨/١٦٦.

(١١) الأهرام ١٩٢٤/٣/١٢.

(١٢) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩.

(١٣) الأهرام ١٩٢١/٨/١٧.

(١٤) الأهرام ١٩٢٤/٣/١١

(١٥) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩

(١٦) الأهرام ١٩٢١/٨/١٧.

(١٧) الأهرام ١٩٢١/٨/١٨

(18) - Mona Hammam - women workers and the practice of Freedom as Education the Egyptian Experience - (pw.D. Thesis. University of Kansas' 1977) p.118.

(١٩) لاكور. الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط - المرجع السابق - ص٣٤.

(٢٠) حسين نامق. خلاصة الاقتصاد. مطبعة هندية. أغسطس ١٩٢٢ ص١٢١.